

مدن ومواقع إسلامية
المحاضرة الخامسة
المرحلة الثانية
مدينة الكوفة
م.م علي احسان عبد علي

الكوفة

أهتز عرش بني ساسان عرش الطغيان والاستبداد والجهالة ، أثمر الانتصار الرائع الذي سطره جند القائد العربي سعد بن ابي وقاص على جيش رستم في ملحمة العرب الكبرى القادسية .

واندفع جيش العرب المسلمين شرقا نحو المدائن ليحطم مقر السلطة الساسانية ويكمل تحرير العراق من نفوذها . فخاض جيش سعد معركة ضارية في دجلة توجت بدخول جيشه مدينة طيسفون وانهازم يزدجرد . دخل العرب المسلمون عاصمة بني ساسان تحت راية الاسلام بقيادة سعد بن ابي وقاص وهرب يزدجرد شرقا لايلوي على شيء وتبعه اصحابه الساسانيون

وبات من الضروري ان يكون للعرب المسلمين دار هجرة في العراق بعد ان تحرر من النفوذ الساساني . فلم يمانع سعد من اتخاذ خطط لجيشه في طيسفون والانبار . ولكن وبعد فترة وجيزة وفي ضوء ملاحظات الخليفة عمر بن الخطاب بخصوص طبيعة مناخ المنطقة وما يناسب افراد الجيش العربي الاسلامي وعوائلهم اخذ القائد يفكر في انشاء دار هجرة جديدة لجيشه تفاديا لما قد يحدث اذا ما أستمّر جيشه في العيش بطيسفون والانبار .

اعلم القائد سعد الخليفة عمر بن الخطاب بواقع الحال وطلب منه الموافقة على انشاء دار هجرة للعرب المسلمين تكون مقرا لهم منها يتحركون واليها يرجعون بعد اداء المهام . وافق الخليفة على مقترح القائد واوصاه بما أوصى به عتبة بن غزوان في اختيار المكان المناسب وامر ان يقوم رائدا الجيش سليمان وحذيفة بن اليمان بمهمة الاختيار شرط ان يكون الموضع في طرف البادية قريبا من الماء والمرعى . وبعد تحريات لأماكن عديدة وقع الاختيار على موقع مرتفع بين الحيرة والفرات ، وصف بأنه لسان برى مستدير يدعى بخد العذراء . أقر سعد هذا الاختيار وكتب الى الخليفة يصفه قائلا : « اني نزلت الكوفة منزلا بين الحيرة والفرات برى بحريا ... وخيرت المسلمين بالمدائن ، فمن اعجبه المقام تركته فيها كالمسلحة فبقى أقوام من الاقناء .. واكثر بني عبس » ويظهر ان أسم المدينة او المصر الجديد قد اشتق من طبيعة الارض المختارة فهي مستديرة معروفة بنباتاتها البرية مثل الشيع والقيصوم وغيرهما .

مصرت الكوفة عام ١٧هـ / ٦٣٨م واورد المؤرخون والجغرافيون تفاصيل دقيقة عن خطط المدينة وتخطيطها . وكانت خطط الكوفة قبلية مثل خطط البصرة . وجعلت لكل قبيلة محلة خاصة سميت بأسمها ودعيت الشوارع الرئيسة بأسماء تلك القبائل أيضا . وساعدتنا المعلومات خاصة

بخطط المدينة كثيرا في معرفة القبائل التي كان يتألف منها جيش سعد بن أبي وقاص . وتكشف طبيعة الموضع المختار عن القيمة السوقية له فقد جعلت الصحراء خط حماية للجيش العربي الاسلامي وخط دفاع مهم جدا اذا ما تراجع الجيش غربا ، وهذه صفة مميزة للامصار العربية الاسلامية التي مصرت في عهد الخليفة عمر بن الخطاب ، كما تميزت مواقعها بانها قريبة من المياه والاراضي الزراعية اللذين هما حاجتان اساسيتان لنمو وازدهار المدن ، وهذا ما حدث فعلا فقد ظلت الكوفة مركزا زراعيا وتجاريا مهما لفترة طويلة وحتى الوقت الحاضر . ولعل اختيار موقع الكوفة الملائم لم يكن وحده الصفة المميزة للمدينة حسب ، بل يتعداها الى التخطيط الهندسي المنتظم للمدينة والنظرة العمرانية وآفاق مستقبل المدينة . فتخطيطها الهندسي الذي اوصى به الخليفة عمر بن الخطاب ، يشير الى الاتقان والابتكار ويعتبر - كما ذكرنا عند كلامنا عن البصرة - اضافة نوعية في هذا الحقل من حقول الحضارة العربية الاسلامية فكانت خطط او محال القبائل التي نزلت الكوفة تحيط بمركز المدينة من جميع الجهات ويفصلها عن المسجد الجامع ودار الامارة فراغ تؤدي اليه جميع الشوارع الرئيسية التي تفصل بين خطط القبائل وكانت بعرض اربعين ذراعا ، كما هو الحال في البصرة ، وتربط بين هذه الشوارع عرضا شوارع ثانوية بعرض عشرين ذراعا تتفرع منها ازقة بعرض سبعة اذرع وتتوغل هذه الازقة بين دور الناس . وتتوسط كل محلة او خطة مساحة مربعة طول ضلعها ستون ذراعا . وسميت الشوارع الرئيسية باسماء القبائل التي تقع على هذه الشوارع . واوصى الخليفة عمران تكون الدور متراصة ولا تزيد عدد الغرف في الواحدة منها عن ثلاث ولا يرتفع البناء فيها أكثر من طابق واحد . والحقيقة ان التصميم الهندسي لمدينة الكوفة وقبلها البصرة هو بداية الطريق للشكل المدور لمدينة السلام . استخدمت اخصاص القصب في بناء دور الكوفة فقد كانت الاخصاص تجمع

وتخزن عندما يتقدم جيش سعد بن ابي وقاص ويعاد ترتيبها عندما يعود الجيش . وتروي كتب التاريخ قصة احتراق دور الكوفة بعد عام واحد من انشائها فاذن الخليفة باستخدام اللبن والطين بدلا من اخصاص القصب في بناء الدور والمرافق العامة .

عاشت الكوفة رغم ما تعرضت له من تخريب . فقد كان لموقعها الجغرافي واهميتها الاقتصادية والعلمية والادارية اهمية خاصة في ديمومتها . وسلم من اثارها مسجدها الجامع ودار الامارة فيها . أما دورها وبقية مرافقها العامة فتغطيها ابنية المدينة الحديثة .

أكدت التحريات الفنية التي اجرتها الجهات المعنية في جامع الكوفة المعلومات التاريخية بشأن شكله وسعته وكشفت ان البناء قد شيد بطابوق جديد موحد القياسات وانه غير منقول من ابنية سابقة وبذلك ثبت خطأ نظرية من حاول أن يدس على العرب المسلمين بأنهم هدموا ابنية الحيرة واستخدموا طابوقها للابنية في مدينة الكوفة ومما لا شك فيه ان سعدا اشرف بنفسه على تخطيط جامع الكوفة . فقد روى انه امر رجلا قوي الذراع باطلاق اربعة اسهم في اتجاهات اربع وامر ان تجعل مواقع الاسهم حدودا للجامع وجعلت بهيئة خنادق تحيط به . وجاء ايضا ان القائد امر ان يسقف بيت الصلاة فيه وحملت ذلك السقف أعمدة رخامية جميلة . وكشفت التنقيبات ان مسجد الكوفة الجامع كان مربع الشكل طول ضلعه ١١٠ امتار . وفي ضوء ذلك فان سعته كانت كافية لاربعين ألف مصل . لقد جدد جامع الكوفة وزيد فيه عدة مرات . وكانت اهمها تلك التي امر بها الوالي الاموي زياد بن ابيه فأمر ان يبنى الجامع بالجص والطابوق واتقن تخطيطه وبناءه . واستخدم زياد أعمدة رخامية جميلة لرفع سقوفه وعثرت هيئات التنقيب على أجزاء من هذه الاعمدة الرخامية الرشيقة وتيجانها ذات الزخارف المتقنة (لوح ٢) . واهتم العباسيون بالجامع ايضا فقد ذكره الرحالة العربي ابن



لوح - ٢

بعض تيجان وقواعد الاعمدة الرخامية التي كانت ترفع
سقف جامع الكوفة على عهد زياد بن ابيه

جبير واوضح تفاصيل تخطيطه وتصليحه . وقد زار ابن جبير الكوفة عام ٥٨٠ هـ - ١١٨٤ م . ونال اعجاب الرحالة العربي ابن بطوطة الذي زار الكوفة عام ٧٢٧ هـ / ١٣٢٧ م فوصفها بدقة . وتعود أبنية الجامع الحالية أو معظمها وخصوصا جدرانها الخارجية الى العهد الايلخاني وتقع اسس بنائه الاول على عمق ٥٠ متر عن مستوى ارضيته الحالية . وطراز جامع الكوفة حيري وهو الطراز السائد في العراق انذاك .

واظهرت التنقيبات التي اجريت في دار امانة الكوفة معلومات هامة بخصوص سعتها وعلاقتها بالمسجد الجامع عند تأسيسها . فكانت بسعة الجامع غير ملتصقة به . واهم تعمير حدث فيها ذلك الذي امر به زياد بن ابيه فاعاد البناء ودعم جدرانها الخارجية بابرار واستخدمت هذه الدار مقرا للوالي الاموي والعباسي والاييلخاني ، فجددت عدة مرات وتوصلت هيئات التنقيب الى تفاصيل ابنيتها في العصر الاموي والعباسي والاييلخاني . وفي السنوات الاخيرة قامت الجهات المعنية بصيانة اجزاء من هذه الدار وسورها الخارجي (لوح ٣) .

ازدهرت الكوفة ونست بسرعة خصوصا بعد ان اتخذها الامام علي ابن أبي طالب عاصمة للدولة العربية الاسلامية عام ٣٦ هـ - ٦٥٧ م . ولم يؤثر عليها كثيرا انتقال مقر الخلافة الى دمشق فقد اتخذها الامويون مقرا لوالي العراق وبالتبادل مع البصرة قبل بناء واسط . وبدأت فيها حركة فكرية وعلمية متميزة خلال العصر الاموي والعباسي وعرفت برجالاتها في هذا المجال . وكان لموقعها وقربها من الماء والاراضي الزراعية اثر كبير في استمرار توسعها وتطورها . وظلت مركزا اداريا لاجزاء واسعة من غربي الفرات طيلة العصر العباسي والاييلخاني . وقد تعرضت الكوفة شأنها شأن

لوحة ٣ -
منظر جوي لجامع الكوفة ودار أمارتها وتعميل الجزء
من أعمال الصيانة لمورها



بقية المدن العراقية وبسبب الصراعات السياسية والاطماع الاجنبية الى ولايات وكوارث أثرت عليها نسبيا . ولكن رغم ذلك فقد ظلت المدينة عامرة والى يومنا هذا وظل مسجدها يستعمل للصلاة ويشغل مركز المدينة . والحقيقة ان أبنية المدينة الحالية تغطي أغلب المساحات التي كانت تشغلها أبنية المدينة القديمة . وبأسم هذه المدينة يسمى الخط العربي الجميل الذي أستخدم للكتابات التذكارية في مجالات متنوعة .